

الإمام الغزالي

ذو فكر منبجى فذوا اختصا صا ت علمية شتى

د. محمد سعيد رمضان البوطي

للامام الغزالي مكانة جلية في عقلي وقلبي ، منذ أول عهدي بالسير في طريق المعرفة .

وليس هذا اطراء له ، و لا برهان عظمة في شخصه أو سموه في مكانته . فالرجل كان ولا يزال ملء قلب العالم وعقله ، بكل ما فيه من نحل ومذاهب وفئات . فماذا عسى أن يغير أو يزيد في الأمر ، مكانته من فؤاد واحد مثلي وعقله ؟؟؟ .

ولكني أريد أن أبني على ما قلت أنني ، منذ معرفتي للغزالي واقبالي على قراءة كتبه ، كنت أتساءل في نفسي عن سر هذه المكانة التي يتبوؤها ، وعن مصدر هذا الجلال الذي يحيط به ، بل عن سر اعجاب الفكر العالمي به .

ولقد استقر في ذهني ، بعد طول فكري وتأمل ، أن مصدر ذلك كله يتمثل في مزيتين اثنتين امتاز بهما الغزالي دون أقرانه ، ودون الذين جاؤوا من بعده ، ودون كثير ممن خلوا من قبله .

أولى هاتين المزيتين أنه لم يكن على غرار من عاصره أو جاء من بعده من العلماء ، في التوجه الى اختصاص علمي واحد ، مع المشاركة في بقية العلوم الأخرى أو بعض منها ، مشاركة اجمالية عامة . بل انك لتنظر ، فتجد اسمه يلتمع في كل قائمة تضم أسماء ذوي الاختصاص في أي من العلوم الاسلامية والعقلية المتداولة . فهو الاسم الوحيد الذي يتكرر في تلك القوائم كلها ! .

تنظر في قائمة علماء الفقه ، فتجد اسمه مستقراً في قلبها • وتلفت الى قائمة علماء الأصول ، أي (قواعد تفسير النصوص) وإذا اسمه يلتمع في أعلاها • وتتأمل قائمة علماء الفلسفة الاسلاميين ، فإذا اسمه هو أول الأسماء فيها • وتنتقل الى قائمة علماء الكلام فتجده مستقراً في مقدمتها • ثم تنظر في قائمة علماء التربية والتصوف ، فإذا هو يتبوأ مركز الصدارة فيها • وتتحول الى قائمة علماء النفس فإذا اسمه قد سبق أيضاً إليها...

بقي علم واحد ، لم يظهر للغزالي اسم بين أسماء العلماء المتخصصين فيه ، بل لعله كان دون مستوى المشاركة فيه أيضاً • وهو علم الحديث والرواية ؛ وان ذكر المترجمون له أنه أخذ يشغل بالحديث في آخر حياته ، ولكن الموت عاجله ، قبل أن ينجز من ذلك سوى شيء يسير (١)

أما المزية الثانية التي كان يتمتع بها ، فهي الفكر المنهجي الدقيق ، الملازم له في كل ما يكتب ويبحث فيه ، أي كان الموضوع أو العلم الذي يعالجه •

ولست أدري ماذا أقول في مصدر هذه المزية العجيبة لديه : أهى فطرة فطره الله عليها ، فهو منذ نشأته العلمية ، كان يتناول المسائل والمباحث العلمية المختلفة بتلك الفكرة المنهجية المبرمجة ، أم هي أثر خلّفته في فكره دراساته المنطقية والفلسفية ، فتمرس بها واعتاد عليها ولازمها في كل ما يكتب أو يؤلف فيه •

ومهما يكن فانك لا تكاد تقرأ للغزالي بحثاً في أي من العلوم العقلية أو النقلية الا وتجده يسر بك في تحليل هذا البحث ودراسته ، من خلال منهج دقيق متبصّر ! • فهو يبدأ بتفتيت كل المسألة الى أجزائها ، أو كلي الموضوع الواحد الى جزئياته • ثم يضع تلك الأجزاء أو الجزئيات تحت مجهر السبر والتقسيم ، ويخضعها جميعاً لاستقراء الاحتمالات العقلية كاملة ، ثم ينقد تلك الاحتمالات واحداً اثر آخر ، ويكشف عما قد يكون في تضاعيف كل منها من الزغل ومظاهر البطلان ؛ الى أن يوصله منهج السبر العقلي ، وطريقة الطرح والاسقاط ، الى مكمن الحق ومنبعه بين تلك الفرضيات والاحتمالات كلها • فيمعن عندئذ في تجليته وصقله باستخراج البراهين العلمية المتفقة مع نوع ذلك الموضوع وطبيعته • ثم لا يتركه الا وقد حصّنه في سور من القناعة العلمية في كسوة من البيان الرائع والأسلوب المبسط الأخّاذ ! ••

وليست هذه طريقتة في تحقيق القضايا العقلية أو العلوم الفلسفية خاصة ، بل ذلك هو شأنه حتى في عرض مواجيد الايمانية ووصاياہ ومواعظه الصوفية • أجل ، تلك هل طريقة محاكمته للبحوث والموضوعات ، سواء تلك التي تقرأها في « تهافت » الفلاسفة أم التي تتأملها في « احياء علوم الدين » أم التي تدرسها في « الوسيط » في الفقه أم في « المستصفى » في أصول الفقه أم في أي كتاب من كتبه أو رسالة من رسائله ! ••

★ ★ ★

فها تان الخصيستان اللتان امتاز بهما الامام الغزالي ، قد أكسبتاه سلطاناً كبيراً على عقول قرائه ودارسي كتبه وأفكاره . بل أكسبتا أفكاره وكتاباتاه روحاً تدعو الى الاستئناس بها والركون اليها ، لا تجدها في أكثر ما تقرأه للآخرين .

وذلك لأن اتساع باعه في ميادين العلوم المختلفة ، الى درجة العمق والاتقان لكل منها ، يسر له دعم آرائه وأفكاره ، أي كانت ، بالحجة العلمية المقنعة . كما أن فكره المنهجي ذاك ، أقدره على انزال حججه وأفكاره ، مهما كانت في ذاتها عويصة ومعقدة ، الى مستوى من البساطة في العرض واليسر في الفهم ؛ بحيث يفهمها ، بل يتذوقها ويتفاعل معها كل من أوتي نصيباً من الثقافة والفهم .

وانما يمتلك العالم أو الكاتب أفكار الناس ويجتذبها اليه ، بعلمه العميق اذ يبني على أساسه حججه المقنعة ، وبمنهجه في ترتيب الدلائل والمقدمات اذ يكون منه أسلوبه في العرض والبيان .

فاذا أوتي بعد ذلك قدرة على افراغ المعاني العلمية في صياغة دقيقة وعبارات رشيقة وطوّعت له الأداة اللغوية في السير بها الى تحقيق ذلك ، فهو منتهى ما يمكن أن يرقى اليه الباحث والعالم في محاوره الناس والتعبير لهم عن معارفه وأفكاره .

وما من ريب في أن الامام الغزالي رحمه الله ، كان يتمتع بهذه المزايا كلها .

هذا ، ولقد كان من آثار ذلك كله ، أنك تنظر فتجد أن كتاباته كلها تتسم بطابع كلي واحد ، مهما تنوعت مضامينها واختلفت أو تباينت العلوم التي تعبر عنها . فطابع المحاكمة العقلية ، والتنسيق والتقسيم ، والتحليلات النفسية والفلسفية ، هو الصبغة العامة التي تبرز في سائر مؤلفاته وكتاباتاه .

ولعل من المناسب أن نتناول ، ولو بإيجاز ، بعض الأمثلة التي تبرز هذه الحقيقة . فانها ستعيننا ، بدون ريب ، في اكتشاف جوانب هذه المزية الفريدة التي كان يتمتع بها الغزالي :

كتاب « المستصفى » من أواخر ما ألفه الامام الغزالي ، ان لم يكن آخر مؤلفاته على الإطلاق . وهو يعدّ من المؤلفات النادرة ، بل الفريدة في علم أصول الفقه . ولا ريب أن من أهم ما يمتاز به عن كل ما كتب في هذا الفن تلك المقدمة التي وضع فيها بين يدي القارئ المنهج العقلي والنقلي للمعرفة ، وكيفية صياغة الحد والبرهان ، وفلسفة دلالات الألفاظ وضوابطها ، ومدارك اليقين مع الفرق بين العلمي منها والوهمي .

ويخطيء من يتصور أن الغزالي لم يزد في عرضه لهذه المقدمة على أن ألصق طائفة من مباحث المنطق اليوناني بصدر كتابه هذا وجعلها فاتحة بحوثه . . فأغلب الظن أن هؤلاء لم يقرؤوا شيئاً من هذه المقدمة . ولم يزيدوا على أن استعرضوا عناوينها ، فشموا

منها رائحة المنطق ورأوا فيها بعض اصطلاحاته الشائنة • فضاقت بها صدورهم ، وأعرضوا عنها ، بعد أن حكموا عليها حكماً غيائياً دون قراءة متبصرة (٢) • ولو أنهم قرؤوها بأناة ، لرأوا أن الغزالي صاغ في تلك المقدمة منهجاً علمياً للمعرفة ، متحرراً وبعيداً عن المنطق اليوناني • وهو ذلك المنهج الذي تعتز به حضارتنا العربية الإسلامية أيما اعتزاز (٣) • لا ريب أنك قد تجد فيها قواعد واصطلاحات من المنطق اليوناني • ولكنها مفككة الأوصال ، ومحولة الى ما يشبه أنقاضاً دخلت في قوام بنيان مستقل لمنطق منهجي سديد •

فلئن كانت غاية خصوم المنطق أن يتبرءوا اللسان العربي والفكر الإسلامي من كل ما فيه من ألفاظ وقواعد واصطلاحات فإنه لمطلب عسير ، بل متعذر على العقل الانساني أياً كان صاحبه • فما من باحث يستطيع أن يبرهن على أن بنيان المنطق الأرسطاليسي بكل جزئياته وقواعده وتصوراتهِ وألفاظهِ لغو وباطل من القول ! • بل الثابت يقيناً أن فيه الكثير من الموازين والأحكام الصحيحة والدقيقة ، الى جانب ما قد يكون فيه من الأغلاط والتصورات الباطلة • وانما يتمثل الابداع الفكري والتحرر العقلي في أن يتمتع الباحث بشخصيته المستقلة ، ثم يتحصن بطاقة علمية ممتازة ، ثم يقتحم ميادين الأفكار والعلوم والفلسفات كلها فيلتقط منها الحق ويتجنب الباطل ويحذر منه • وتلك هي حقيقة المقدمة المنهجية التي أقام منها الغزالي مدخلاً الى كتابه المستصفي •

كانت هذه كلمة على هامش هذه المقدمة •

وانما أريد أن أضع بين يدي القارئ مثالا ، كما قد قلت ، تتضح من خلاله الشخصية العلمية التي يمتاز بها الغزالي رحمه الله :

باب الحكم ، يعد من أوائل أبواب أصول الفقه الهامة • ويقرر فيه علماء الشريعة الإسلامية أن الله تعالى خالق الأشياء كلها خالق الصفات التي تتصف بها • فهو خالق الخير ، وهو الذي خلق فيه معنى الخير ، وهو خالق الشر وهو الذي أضفى عليه صفة الشر . اذن فأحكام الله تعالى في شرعه ليست خاضعة لمقتضى الخير والشر في الأشياء ، بل صفة الخير والشر في الأشياء هي الخاضعة لحكم الله عز وجل • وعلى هذا فالعقل وحده لا يستقل بمعرفة أحكام الله تعالى في الأشياء لمجرد ما قد يبدو فيها من سمات الخير أو الشر • بل لا بد للعقل أن يتلقى أحكام الله تعالى من مصدر الوحي والرسالة • وقد أوضح الغزالي هذا مفصلاً ، في باب الحكم •

غير أن من المعلوم أن هذا الذي ذهب اليه جماهير علماء الشريعة الإسلامية ، يخالف ما ذهب اليه المعتزلة • فانهم يرون أن في الأشياء ما ينبع معنى الخير أو الشر من داخله ، فهو لا يحتاج الى أن يُخلق خلقاً مستقلاً ، لأنه يُخلق مع ايجاد الله تعالى للشيء بحد ذاته • أي فوصف الحسن أو القبح فيه ذاتي وجوهري ، وليس اعتبارياً عرضياً • وعلى هذا فان العقل قد يستقل بمعرفة أحكام الله تعالى في تلك الأشياء ، وذلك تبعاً لما تتصف به من حسن أو قبح • ويستقل العقل عندئذ باصدار الحكم باتباع الحسن واجتناب القبيح ، دون حاجة الى انتظار الوحي والانبياء •

والطريقة المتبعة لدى سائر المؤلفين في أصول الفقه أنهم يذكرون رأي الجمهور ودليله ، ويتبعونه ببيان رأي المعتزلة وأدلتهم ، ثم يرجعون ما استقر عليه الجمهور . وهي طريقة متكررة متشابهة يتناقلها المؤلفون بعضهم من بعض .

ولكن الامام الغزالي جعل من هذه المسألة مطلباً علمياً مستقلاً ، وفتح في سبيل تمحيصها ملف نقاش علمي دقيق طبقاً لفكره المنهجي الذي ألمحنا اليه .

بدأ قبل كل شيء فجمع على سبيل الحصر المعاني التي قد تُراد من كلمة الحسن أو القبح في فعل أو شيء ما ، وذلك عن طريق الاستقراء العقلي . ثم أخذ يسقط من هذه المعاني ما لا يدخل في دائرة البحث ونقطة النزاع واحداً اثر آخر . حتى اذا ضاقت الدائرة وتحدد المعنى المراد ، وتحرر بذلك محل النزاع وانضبط حجمه بين المعتزلة والجمهور أخذ الغزالي ينبه الى (مشارات الغلط) ، على حد تعبيره ، التي انزلق فيها المعتزلة . وراح يفصل القول في هذه المشارات بتفصيل وأناة ، جاعلاً من المثال المفضل لدى المعتزلة ، وهو حسن انقاذ الغريق ، محط التجربة والبحث .

وحديث الغزالي عن مشارات أخطاء المعتزلة - على حد تعبيره - مُسهب وطويل . ولكن بوسعي أن أذكر هنا خلاصة عنه تجسد بحق هذه المزايا التي اختص بها الغزالي عن غيره .

بدأ الغزالي ببيان الحالة التي يكون مثار الغلط فيها واضحاً جلياً ، ثم تجاوزها الى حالة يكون رصد أسباب الخطأ فيها أقل وضوحاً ، ثم تجاوزها الى حالة ثالثة يكون وجه الخطأ فيها خفياً ، ولكنه نبه الى مكنه وسره من خلال معلوماته الدقيقة العجيبة في مجال علم النفس . وهو ميدان قلما يجول فيه غيره .

أما مثار الغلط في الحالة الأولى ، فهو أن الانسان الذي يندفع الى انقاذ شخص يشرف على الغرق ، انما يحمله على ذلك ما يعلم من ثناء الناس عليه وتحديثهم عن شهامته ونجدته ، فحسن هذا العمل آت من هذا العارض الخارجي . وانما يستبين ذلك في حالة وجود ناس من حوله يرون عمله .

أما مثار الغلط في الحالة الثانية ، فهو أن هذا الذي يندفع الى انقاذ ذلك الشخص ، يعلم أنه اذا أنقذه من الهلاك فلسوف يحدث الناس عن شهامته وانسانيته وبطولته فيما أقدم عليه ، فيكون هذا التصور باعثاً له على فعله ذاك ، فهو آت أيضاً من عارض خارجي . غير أن هذا المثار الثاني يكون عندما لا يوجد حول الغريق أو المنقذ من قد يراه من الناس ، ولذلك فسبب الغلط هنا أقل وضوحاً .

أما مثار الغلط في الحالة الثالثة ، وهي أخفاها وأدقها ، (وانما يكون ذلك عندما يكون المكان خالياً من المارة والناس ، ولا تطمع - لسبب ما - في أن يتحدث ذلك الشخص الموشك على الغرق ، لأحد عن أنقذه ، فان الانسان مع ذلك يندفع الى انقاذه) يقول الغزالي : أما مثار الغلط هنا ، فهو تأثر النفس الانسانية عادة بذلك الوهم الذي يسميه (سبق التصور الى العكس) أقول : وانما يعني به ذاك الذي يسمونه اليوم برد الفعل الشرطي .

ويقف الغزالي هنا ، ليعرف القارئ على هذا القانون ، ويمضي في تحليله ، وبيان كيفية تأثر جل الناس به ان لم نقل كلهم ، ويضرب له أمثلة كثيرة مختلفة ، حتى اذا فهمه القارئ وتدوقه تماماً ، وعرف كيفية تأثيره على الواهمة ، عاد فأوضح كيفية انطباقه على قصة انقاذ الفريق في هذه الحالة الثالثة .

ويمضي فيوضح أن هذا الانسان عندما يرى ذلك الشخص موشكاً على الفرق ، وهو يرفع يديه مستنجداً مستغيثاً ، لا بد أن يتخيل بمقتضى الطبع الانساني أنه واقع مكانه في ذلك المأزق ، وكيف أنه يرى شخصاً يمر به دون أن يكثرث به ، ويتصور عندئذ مدى المقت والاحتقار اللذين سيشعر بهما تجاهه ، فتتأذى مشاعره من هذا التصور بحكم كونه مؤثراً طبيعياً . ثم ينظر الى حال هذا الفريق فينبعث لديه ذلك التأثير نفسه مقترناً بمنظره وهو يشرف على الفرق دون أن ينقذه أحد ، اذ يخيل اليه أنه ينظر الساعة اليه باحتقار وازدراء . فيهب لنجدته عندئذ ، بدافع من الرغبة الخفية في أن يرد عن نفسه هذه التهمة التي يتخيلها بمقتضى قانون الاقران ، والتي تؤذيه وترمضه بدون ريب .

وقد لا يرصد الاحساس الانساني في تلك اللحظة ، هذا التحليل الدقيق ، لا سيما عندما لا يكون الفريق ملتفتاً أو متنبهاً اليه ، فيتوهم الرجل أنه ليس مندفعاً الى الانقاذ الا لحسن ذاتي فيه . ولكن الحقيقة أنه يفعل ذلك دفاعاً عن نفسه وكرامته ضد وهم من عادة الانسان أن يتأثر به أكثر مما يتأثر لكثير من الحقائق الثابتة وان كان هذا الدافع يبقى في الأغلب خفياً عن ساحة الشعور السطحي .

فانظر الآن الى أصل هذه المسألة كم هي صغيرة وجزئية ، ألا وهي مسألة الحكم في مقياس الشرع هل يمكن أن يستقل به العقل دون استناد الى وحي . ان بوسعك أن تقرأها في أي من كتب أصول الفقه المختصرة والمطولة ، فلا تجدها تخرج بك عن نطاق مسألة فقهية ذات جذور أصولية .

غير أن الغزالي فككها جزئيات وأجزاء ووزعها بين أبعادها العلمية المختلفة ، وكشف عن الشرايين الواصلة بينها وبين سائر ما تتعلق به من دقائق التحليلات الفلسفية والأحكام النفسية . وأقام من ذلك كله براهين علمية على الحق الذي ذهب اليه أهل السنة والجماعة ، وعلى الوهم الجلي أنا والخفي أنا ، الذي انجرف فيه المعتزلة (٤) .

★ ★ ★

وتلك هي طريقة الغزالي في معالجة وتحليل سائر المسائل والمعضلات العلمية على اختلافها .

ولكن فلنعرض مثالا آخر ، نأخذه من غير « المستصفى » . وليكن من كتابه « تهافت الفلاسفة » .

وحسبك أن تقف منه على ذلك التحليل العلمي العجيب الذي ناقش من خلاله الفلاسفة الاغريقين ومقلديهم من الفلاسفة الاسلاميين ، في مسألة قانون السببية وحقيقته . لقد برهن من خلال بيان طويل الدليل على أن ما نتوهمه سبباً يستلزم على وجه الحتم والضرورة مسببه ، في دنيا الطبيعة وأشياءها المادية ، لا يعدو في الحقيقة أن يكون ، في حجمه العلمي الدقيق ، اقتترانات مجردة ، أضاف إليها الوهم النفسي من عنده - بسبب طول الاقتران وعدم انفكاكه - حكماً فضولياً من عنده دون أي رصيد علمي ، ألا وهو توهم حتمية هذا الاقتران في الماضي وفيما لا يزال؛ وليس لقرار النفس هذا من برهان على ذلك الا استمرار الاقتران .

وأهم ما في هذا البحث العجيب الذي تناوله الغزالي من أطرافه العلمية كلها ، وسبق في ذلك العلماء الوضعيين والتجريبيين الذين جاؤوا فيما بعد ، أنه نبه من خلاله الى ما سماه « اليقين التدريبي » والى الفرق الدقيق الذي لا يتبينه كثير من الباحثين بينه وبين اليقين العلمي .

وأنا لا أعلم - اعتماداً على اطلاعي - أحداً سبق الغزالي الى الحديث عن « اليقين التدريبي » هذا ، والفرق بينه وبين اليقين العلمي . ولكم التبس على باحثين وعلماء الفرق بينهما ! ..

واليقين العلمي هو ذاك الذي يعتمد على براهين علمية مجردة ، بعيداً عن سلطان النفس وتأثيراتها ، وهو يحتاج ، كما يقرر الغزالي في أكثر من موضع في كتابه الاحياء ، الى معاناة دائبة تهدف الى تحرير العقل من أهواء النفس وأوهامها ، كما يحتاج الى تعبيد الطريق اليه وتصفيته من تعاريج الزغل الفكري وتضاريس الظنون والعصبيات .

أما اليقين التدريبي فهو ما توافرت لديه البراهين التي تكسب النفس طمأنينة اليه وثقة بإمكان الاعتماد عليه . ومن أبرز أمثلته فيما يراه الغزالي تلك الاقتترانات التي يتخيلها الانسان أسباباً ومسببات ، فان طول الاقتران بين أمرين دون ظهور أي انفكاك بينهما ، يورث النفس طمأنينة بأن الاقتران سيستمر وأن شذوذاً لن يقع في العلاقة القائمة بينهما . وذلك كيقين النفس بأن النار ستظل محرقة ، اعتماداً على التجارب المتكررة الماضية التي لم يظهر فيها أي شذوذ .

ويقرر الغزالي أن هذا اليقين ، وان لم يكن علمياً ، غير أن فيه من القوة ما يكفي للاعتماد عليه في اقامة أنظمة الحياة ، والتعامل معها طبقاً لنواميسها القائمة ، وما يضمن للانسان أن لا يتيه ويضطرب وسط الاحتمالات العقلية التي قد تجعله لا يثق بشيء ، خصوصاً عندما سمع العلماء يقولون : ان هذه الاقتترانات القائمة بين ما نراه أسباباً ومسببات لا وثوق بها ، وليس ثمة دليل علمي على حتمية العلاقة بينهما .

غير أن على الانسان أن يتحرر من هذا اليقين التدريبي عندما يريد أن يتأمل ويحاكم الأمور الى براهينها العلمية الصافية عن الشوائب ، وأن يحرص على وضعها في ميزان

القرار العقلي المجرد . ذلك لأن التعامل السلوكي مع الحياة شيء ، ودراسة قوانينها على ضوء الأدلة العلمية المجردة شيء آخر (٥) .

وأعود فأكرر ما قلته : انني لا أزال أعتقد أن الغزالي هو أول من كشف عن هذا الفرق بين هذين النوعين من اليقين : اليقين التدريبي النفسي ، واليقين العقلي العلمي المجرد ، وميز بين وظيفة كل منهما ، وحدد لكل منهما مجاله وعمله .

فان كنت مخطئاً ، وكان ثمة من سبق الغزالي الى بيان هذه الحقيقة الهامة ، فله مني الشكر الجزيل ، ان هو تكرم فنبهني الى ذلك ، وذكر لي اسم ذلك العالم أو الفيلسوف الذي سبقه الى الحديث عن «اليقين التدريبي» ومظاهر الفرق بينه وبين «اليقين العلمي» .

ولا ريب عندي في أن هذا التحليل الهام ، يشكل معلمة بالغة الأهمية على طريق منهج المعرفة والسلوك .

★ ★ ★

وبعد ، فان الحديث عن الامام الغزالي يظل مبتوراً ما لم يتوَّج بالحديث عن كتابه العجيب العظيم : احياء علوم الدين .

ولا ريب عندي في أن هذا الكتاب من أعاجيب المؤلفات النادرة في تاريخ التراث الاسلامي العربي . انه في الحقيقة موسوعة علوم شتى . فقد ضم في ثناياه علم النفس ، والأخلاق ، والاجتماع ، والفلسفة ، الى جانب العلوم الاسلامية من عقيدة وفقه وتصرف (أعني علم أمراض القلب وعلاجاته) . الا أنك لا تجد هذه العلوم المختلفة المتنوعة منثورة فيه على انفراد ، كمخزن ضم أصنافاً من البضائع المترصفة . وانما صاغ منها الامام الغزالي جوانب وأركاناً متناسقة متماسكة لبنيان علمي واحد أقام منه مجمّعا للحقائق الاسلامية الكاملة التي لا مزيد عليها .

ان الذي ينشد معرفة الغزالي الضليع في تحليل النفس الغائص في أسرارها والتمكن من علومها بوسعه أن يعرفه بهذه الصفة تماماً من خلال مطالعة كتابه احياء علوم الدين . والذي ينشد معرفة الغزالي ذي الباع الواسعة في علم الاجتماع والأخلاق وفلسفتهم ومقوماتهما ، فليبحث عنه في كتابه الاحياء . والذي ينشد معرفة الغزالي أستاذ التربية الانسانية والمشخص بدقة لأمراض النفس التي تعصف بسعادة الفرد والمجتمع ، والواصف لأدويتها وعلاجاتها وسبيل الوقاية منها ، بوسعه أن يعثر عليه في هذا الكتاب ذاته : الاحياء . والأديب الذي يبحث عن الغزالي الكاتب ، المحلل ، الذي يقتنص بقلمه أدق المعاني وأعوصها ، فاذا هي جليلة سائغة الفهم ، مصوغة بأدق العبارات وأبسطها ، مكسوة بأجمل الأساليب التي تنتزه عن الركاكة والتعقيد ، وتسمو على الصنعة والتكلف سيجده في كل ما يقع عليه من مؤلفاته المتنوعة ، ولكن ان أبى أن يوجع رأسه بمسائل العلوم الدقيقة ، فليتلmse في كتابه الاحياء فيسجد فيه السهل الممتنع سواء من حيث المضمون العلمي أم من حيث الصياغة والأسلوب .

هذا الكتاب العظيم العجيب ، فيه ثغرة واحدة من النقص ، وجلّ من انفراد بالكمال المطلق عن جميع عبادہ .

هذه الثغرة هي وجود كثير من الأحاديث الضعيفة وربما الموضوعية فيه؛ وقد عثر أولئك الذين يحبون انتقاصه ويبحثون له عن زلة كي يشهروه بها على رؤوس الناس ، من هذه الثغرة على ما يشبه الكنز المحبب اليهم . فأخذوا يقومون ويقعدون بالحديث عنها ، وبذلوا قصارى جهدهم في أن ينسجوا منها حجاباً يسدلونه على كل ما في هذه الموسوعة العلمية من خير وذخر ومعين تربية وتعليم للأجيال ! . . .

غير أن من دلائل رضى الله عز وجل عن هذا الكتاب العظيم ، أن قيّض له من يأتي فيتدارك فيه هذا النقص ويسدّ تلك الثغرة . فقد أقبل العلامة الحافظ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى عام ٨٠٦ هـ فخرّج جميع الأحاديث الواردة في الأحياء ، فكان ذلك ذيلاً مباركاً متمماً له ، مقروناً به الى هذا اليوم .

وقد كان هذا العمل الجليل الذي قام به الحافظ العراقي ، مثالا جلياً للفرق بين من يرى نقصاً في عمل عظيم الفائدة والخير ، فينشط لتكميل ذلك النقص الذي فيه ، غيرة منه على ذلك الخير أن لا ينقطع عن الناس رفته ، وتعاوناً مع صاحب ذلك الغرس على البناء ونشر كلمة الحق ، وبين من لا يهتم إلا أن يعثر على النقائص ليجعل منها معولاً لتحطيم البناء ، ويسعى لالتقاط مظاهر التقصير ليُشهرها بين الناس على رماح صفائمه وأحقاده .

★ ★ ★

أما الغزالي الفيلسوف ، فهو لم يعجب فريقين من الناس :

الفريق الأول ، أولئك الذين تركن نفوسهم الى تلك الفلسفات التي تحاول أن تنهج بالأفكار منهجاً مادياً ينأى عن الصراط الاسلامي ومبادئه ومثله . فهؤلاء يجنحون الى فلسفة أمثال ابن سينا وابن رشد والفارابي ومن سلك مسلكهم ، والغريب أن فلسفة هؤلاء الناس تمثل الفكر التقليدي الرجعي المتوقع في العتيق من الفلسفات الاغريقية القديمة ، بينما تمثل فلسفة الغزالي الفكر التقدمي المتجدد الثائر على القديم الذي تبين خطؤه . ومع ذلك فانك تنظر الى هذا الفريق الذي يرفع فوق رأسه لواء التقدم والتجديد ، يحارب التقدم العلمي الحق في فلسفة الغزالي ، وينتصر للرجعية القديمة في آراء الفارابي وابن رشد ! . . .

أما الفريق الثاني ، فهم أولئك الذين ينعتون أنفسهم بالسلفية ، ويدعون ارتباطهم الشديد بمنهج العصور الثلاثة الأولى في صدر الاسلام . ولما كان صدر الاسلام لا يعرف شيئاً من هذه (الرعونات الفكرية المبتدعة) فقد كان على أجيال المسلمين فيما بعد أن تبقى على تلك الحال ، وأن لا تشغل ذهنها بهذا النوع من العلوم . ونظراً الى أن الغزالي قد

أقبل الى هذا العلم فدرسه وتعلمه ، وأصغى اليه بفكره وعقله ، فقد شد عن صراط السلف وهديه ، وانحرف بذلك وابتدع ! ..

هكذا يقول رجال هذا الفريق ! .. يقولون ذلك دون أن يسألوا عقولهم : وماذا صنع الغزالي بالفلسفة الاغريقية بعد أن درسها وتعرف عليها ؟ وهل حصّن العقل الاسلامي المتحرر ضد وباء تلك الفلسفة وغثائها أحد غير الغزالي عندما تعلمها فكشف الزيغ الذي فيها ، وأطفا بريقه الخداع بموازينه العلمية الدقيقة ، ثم رمى به بعيداً عن أودية الاهمال والنسيان ؟

ومن المعلوم أن رائد هذا الفريق من الناس في محاربة الفلسفة والمنطق والتحذير من دراستهما هو ابن تيمية رحمه الله . ولكن العجيب حقاً أنك ، عندما تصغي اليه وهو يسخّف المنطق والفلسفة ويحرم على الناس تعلمهما ، تجده لا يستدل على ذلك الا بما قد حفظه وتعلمه من هذا العلم المحرّم ذاته . فهو ينقل لك أقوالهم ويسخف آراءهم ويسخر من موازينهم المنطقية ، ثم يستدل بصنيعه هذا على أن الخوض في هذا الفن حرام ! .. فيا لله من رجل يحرم على الناس ما يبيحه لنفسه ! .. ويا عجباً لمنطق من يقول : لقد تعلمت لكم الفلسفة ، فرأيتهما باطلا من القول . فلا تتعلموها اذن ، فهي عليكم حرام ! ..

أما نحن فأولى بنا أن نقنّدي بفعل ابن تيمية ، الذي استجازه لنفسه ؛ لا أن نقنّيد أنفسنا بأقواله التي صدرها لغيره . وهذا ما فعله الامام الغزالي تماماً ، وهذا ما يجدر بالمسلمين كلهم أن يفعلوه .

ودعني أنقل لك كلاماً من رسالة وجهها العلامة المحدث الحافظ عفيف الدين المطري ، الى ابن السبكي رحمه الله يحدثه فيها عن الغزالي وبعض من رجال هذا الفريق .

«وأما ما ذكره الشيخ تقي الدين بن الصلاح فما ذكره من عند نفسه ومن كلام يوسف الدمشقي والمازري ، فما أشبه هؤلاء الجماعة رحمهم الله الا يقوم متعبدین سليمة قلوبهم ، قد ركنوا الهويّنا ، فرأوا فارساً عظيماً من المسلمين ، قد رأى عدواً عظيماً لأهل الاسلام فجعل عليهم وانغمس في صفوفهم ، وما زال في غمرتهم حتى قل شوكتهم وكسرهم ، وفرّق جموعهم شذر مذر ، وفلق هام كثير منهم . فأصابه يسير من دمائهم ، وعاد سالماً ، فأرأوه وهو يغسل الدم عن نفسه ، ثم دخل معهم في صلاتهم وعباداتهم . فتوهموا أيضاً أثر الدم عليه ، فأنكروا عليه ! .. هذا حال الغزالي وحالهم . والكل ان شاء الله مجتمعون في مقعد صدق عند مليك مقتدر » (٦) .

★ ★ ★

بقي أن أتكلّم على كتاب الغزالي « المنقذ من الضلال » هذا الكتاب الذي يمثل في تاريخ تراثنا العربي الاسلامي ، باكورة ما يسمى اليوم بالقصة أو السيرة الذاتية .

والكلام على هذا الكتاب طويل الذيل ، تتفرع عنه مسائل وبحوث في غاية الأهمية . لا يمكن اعطاؤها حقها في هذه الأسطر المتبقية من هذا البحث .

وقد كنت بين أن أفرد هذا المقال للحديث عن « المنقذ من الضلال » فلا أعرض لشيء من

الجوانب التي عرضت لها عن مزايا الامام الغزالي ، وبين أن أكتب ما قد ذكرت مما يتعلق بشخصيته العلمية عامة ، وأرجى الحديث عن « سيرته الذاتية » هذه الى فرصة أخرى . وكان أن اختار الله عز وجل لي ما قد فعلت .

غير أنني أريد أن أختتم حديثي هذا بما قد نبه اليه معظم من ترجم للامام الغزالي ، وهو أن ثمة كتابين يُنسبان اليه ويُقحم ذكرهما في قائمة مؤلفاته . وهما ، السر المكتوم ، والمضنون به على غير أهله .

والواقع أن هذين الكتابين ليسا للامام الغزالي ، بل وضعاً عليه ، ودساً بين مؤلفاته زوراً وبهتاناً . نص على ذلك الأسنوي في ترجمته له ، وابن العماد في كتابه شذرات الذهب ، وابن السبكي في طبقات الشافعية وغيرهم .

والحديث عن صناعة الدس في تاريخ تراثنا الاسلامي من الأهمية بمكان . ومن المعلوم أن أبطال هذا السلوك الشائن طائفة من الزنادقة ، كان شأنهم أن يبتغوا الى نشر أفكارهم الزائفة أقرب السبل وأيسرها الى أذهان الناس . وذلك بأن يعمدوا الى كتاب من أكثر الكتب رواجاً بين الناس لمؤلف نال أعلى درجة من الثقة فيما بينهم ، فيدسوا فيه ما شاؤوا من أباطيلهم ، ثم يتركوها تروج بتلك الطريقة بين العقول .

ومن أشهر الكتب التي حشاها هؤلاء الزنادقة بما شاؤوا من أباطيلهم كتاب الفتوحات للشيخ محيي الدين بن عربي ، كما نص على ذلك العلامة المقرئ صاحب نفح الطيب ، وابن العماد في كتابه شذرات الذهب ، والشعراني في كتابه اليواقيت والجواهر ، والحاجي خليفة في كتابه كشف الظنون . ومن أشهر من دسوا عليه أيضاً الامام الغزالي في أماكن من كتابه الاحياء ، وفيما أقدموا عليه من الصاق الكتابين المذكورين به وهو منهما بريء . بل ان معظم ما يدور عليه مضمون كتابه تهافت الفلاسفة ، ليس الا تحطيماً وتمزيقاً لما أثبتته أولئك الزنادقة في هذين الكتابين اللذين دسوهما عليه .

ولعل الله يوفق ، فنتوفر على كتابة بحث مستقل عن قصة هذا العمل الخطير في تاريخ تراثنا الاسلامي والله ولي التوفيق .

د محمد سعيد رمضان البوطي

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - طبقات الشافعية للسبكي : ٦/٢١٠ وشذرات الذهب لابن العماد ٤/١١ .
- ٢ - لعل من أبرز من تصور ذلك وتسرع في هذا الحكم تقي الدين ابن الصلاح . انظر طبقات الشافعية لابن السبكي ٢٢٠/٦ .
- ٣ - اقرأ قصة هذا المنهج في كتاب : مناهج البحث عند مفكري الاسلام للدكتور علي سامي المنشار .
- ٤ - انظر المستصفي : ١/٥٨ فما بعد طبعة بولاق .
- ٥ - تهافت الفلاسفة : ٢٣٧ فما بعد بتحقيق الدكتور سليمان دنيا .
- ٦ - طبقات ابن السبكي : ٢٢٣/٦ .